من التاريخ والأدب

الدكتور إبراهيم السامرائي

جامعة صنعاء

قال النقاد الأقدمون إن الشعر ديوان العرب، والكلمة موجزة، وهي على إيجازها حافلة بالمعاني الكثيرة. ولعل من هذه الفوائد ما كان للشعر من مكانة في الحدث التاريخي، فليس الشعر خبراً تاريخياً ولكنه يعين المؤرخ في تثبيت الخبر وتوثيقه. ومن أجل ذلك حفلت مطولات التاريخ بالشعر الذي جعله المؤرخ القديم رفداً للمادة التاريخية.

وربما كان الشعر القديم مؤدياً الغرض «الإعلامي» إن جاز استعمال هذا المصطلح.

وكنت قد استظهرت طائفة من هذه النصوص، فكان شيء منها قد حفظته عن ظهر غيب أيام الطلب وهو يشير إما إلى حادثة تاريخية وإما إلى وصف لحال من الأحوال الاجتماعية. وقد يكون لي أن أقول: إن النص الشعري أبلغ وقعاً وأكثر تصويراً من الخبر التاريخي. وليس من شك أن قصيدة ابن الرومي في نكبة البصرة على أيدي الزنج مثلاً أبلغ كثيراً من جملة الأخبار التاريخية التي وردت في تاريخ الطبري مما يتصل بالزنج وعبثهم. وقد يكون مثل هذا ما نفيده من الأثر من قراءة قصيدة أبي تمام في فتح عمورية.

وأبدأ هذه الوقفات بوقفة قصيرة أقف فيها على شيء من شعر زهير بن أبي سلمى أتخذه نموذجاً للأدب الجاهلي لأقول: إن القصيدة العربية طوال العصور قد أحلّت المواقف الاجتماعية وما ترمي إليه محلاً واضحاً. ومن هنا كانت القصيدة أداة اجتماعية تؤدي ما نحن ندعوه اليوم «الغرض الإعلامي». وقد يكون لي أن أستميح القارىء عذراً في استعمالي مصطلح «السياسة» في الكلام على أحداث ما قبل الإسلام، مما يدخل في الخصومات التي كانت تحدث بين القبائل. وإني لأقرّب بين النزاعات القبائلية وبين النزاعات التي حدثت بين القبائل في العصور الإسلامية، وما كان من فعل «السلطات» الحاكمة في إثارتها.

وقد كان الشعرالجاهلي مادة مهمة في الإعراب عما كان يحدث من تلك الخصومات،

وإننا لنقرأ في «معلقة» زهير قوله:

سَعى ساعيا غيظ ابن مرّة بعد ما تَبَـزّل مـا بين العشيرة بـالـدّمِ

و«الساعيان»: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وقيل خارجة بن سنان[1]، و«غيظ ابن مـرة» حي من غطفان ثم من بنـي ذبيان، وكـان لهما في الصلح سعي محمود فقـد تحملا الديّـات «بعد ما تبزّل ما بين العشيرة بـالدم» ونمضي مع الشاعر فنقـرأ قوله في الإشادة بما كان من الساعيين المشار إليهما في إصلاح ما جرى بين عبس وذبيان:

فاقسمتُ بالبيت الـذي طاف حـوله رجـال بنـوه من قـريشٍ وجُـرْهمِ
يمينـاً لنعم السيّـدان وجـدتما على كل حـال من سَحيلٍ ومُبرَم(٢)

ويمضي في التنويه بصنيعهما فيقول:

تـداركتما عبساً وذبيـان بعـدمـا تفانَوا ودقّـوا بينهم عطر مَنشِمِ(٣)

«وهـو بهذا يشير إلى الشر العظيم الذي وقع بين القبيلتين ، وليـس من حاجـة إلى أن أشير إلى ما قيل في عطر منشم».

ويمضي الشاعر فيقول:

وقـد قلتُما إنْ نـدركِ السلمَ واسعـاً بمالٍ ومعـروف من الأمـر نَسلَمِ
فمَن مُبلغ الأحـلاف عنّي رسالـةً وذبيـانَ هـل أقسمتُمُ كـلَّ مُقسَمِ
فـلا تكتُمُنَّ اللـهَ مـا في نفـوسكم ليخفى، ومهما يكتَـم اللـه يُعلَمِ

---

(١) وقيل: يزيد بن خارجة، انظر: المعاني الكبير ص٨٨.

(٢) وقوله: «سحيل ومبرم»، «السحيل» الخيط المفرد، و«المبرَم» هـو المفتول، وفي العبارة «كناية» عن شدة الأمر وسهولته.

(٣) و«منشم» هذه زعمـوا أنها امرأة عطّارة من خـزاعة فتحالف قـوم، فأدخلوا أيديهم في عطـرها على أن يقاتلـوا حتى يموتـوا، وقد ضرب بها الشـاعر المثل، أي صـار هؤلاء في شـدة الأمر بمنـزلة أولئك، وقيل: هي امـرأة من خزاعـة كانت تبيع عطـراً فإذا حاربـوا اشتروا منها كـافوراً لموتـاهم فتشـاءمـوا بها، وقيـل في ذلك أقـوال أخـرى، انظـر: شعـر زهير بـن أبي سلمى (صنعـة الأعلم الشنتمري) بيروت ١٩٨٠ ص ١٥ ـ ١٦.

وهو هنا يشير إلى «الأحلاف» وهم أسد وغطفان وطيىء ويسألهم إن كانوا قد حلفوا لَيفعَلُنَّ ما لا ينبغي أن يفعلوه، ثم هو ينصحهم ألا يضمروا خلاف ما يظهرون، ذلك أن الله يعلم السرّ فلا تكتموه، أي تكتموا الصلح في أنفسكم، ثم يعود إلى الحرب وما يتخلّلها وما يعقبها من شرّ وأذى فيقول:

وما الحرب إلاّ ما علمتُمْ وذُقتُمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيتموها فتضرَمِ

وهو يذكّرهم بما يعلمون عن الحرب، وليس ذاك بالحديث الذي يُرمى فيه بالظنون، فقد علمتموها وجرّبتموها فان لم تعملوا للصلح لم تحمدوا أمرها.

ثم يمضي في بيان ويلات الحرب...

أقول: هذه القصيدة بما اشتملت عليه من هذه الأبيات وغيرها تؤلف مادة إنسانية تتصل بإنسانية العربي القديم وما كان من أمره في سلوكه وممارساته، وهنا يقف الشاعر رسول خير وسلام ومحبة. وهذه الأبيات قد تفوق سائر ما قيل في هذه الأخبار التاريخية القديمة، وهي من هنا أفصح في الدلالة من الخبر التاريخي، وإن لم تكن مادة تاريخية منقطعة إلى التاريخ.

ومن مشاهد العرب في الجاهلية ما يدعى بـ «أيام العرب» التي كان فيها الشعراء أعلاماً بارزة، فقد سجلوا ما كان في هذه الأيام من قتال، وما كان فيها من أحداث، ومن هذا ما نقرأ من قول قيس بن الخطيم في يوم بعاث للخزرج على الأوس، وكلاهما من قحطان، في يوم حاطب أيضاً:

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب ... لعمرة وحشاً غير موقف راكب

إلى أن يقول:

دعوت بني عوفٍ لحقنِ دمائهم ... فلما أبوا سامحت في حرب حاطب
وكنت امرءاً لا أبعث الحرب ظالماً ... فلما أبوا أشعلتها كل جانب

وإلى أن يقول:

ويـوم بُعـاثٍ أسلمتْنا سيـوفُنا ... إلى نَسب في جسم غسّان ثـاقب
فهلا لـدى الحرب العـوان صبرتُمُ ... لـوقعتنا واليأس صعب المراكب
فانبـا إلى ابنـائنـا ونسـائنـا ... ومـا مَن تـركنا من بُعـاثٍ بـآئبِ[1]

فأجابه عبد الله بن رواحة بقوله:

إذا عُيِّرتْ أحسابُ قـومٍ وجـدتُنا ... ذوي نـائلٍ فيهـا كـرام المضـاربِ
نُحـامـي على أحسـابنـا بتـلادنـا ... لمفتقـر أو سـائل الحق راغب
بخُرسٍ تـرى المـاذيَ فوق جلـودهم ... وبيضـاً نِقاءً مثل لـون الكـواكب[2]

ومن هذا ما نقـرأه من قول عبد يغوث الحارثي في يوم الكُـلاب الثاني لتميمٍ على مذحج، وقد كان عبد يغوث أسيراً لدى تميم:

ألا لا تلـومـاني كفى اللـوم مـا بيـا ... فما لكما في اللـوم خير ولا ليـا
جـزى الله قـومي بالكُـلاب ملامـةً ... صريحهمُ والآخـرين الموالـيـا
ولـو شئتُ نجّتني من الخيل نَهدةٌ ... تـرى خلفهـا الحُوَّ الجيـاد تـواليـا
ولكننـي أحمي دمـاءَ أبيكُـمُ ... وكـان الـرمـاحُ يختطفن المحـاميـا
أقـول وقـد شـدّوا لسـاني بنِسْعـةٍ ... أمعشَرَ تيمٍ أطلقـوا لي لسـانيـا[3]

وهذه الأبيات تشير إلى أن الشـاعر قد أنحى بـاللائمة على قومـه حين فرّوا، وقد أسر وهو يدافع عنهم.

***

ومن هذه المواقف ما كـان من أيام العدنانيين فيما بينهم كما كـان في حرب البسوس

---

(١) الديوان (ط أوربا) ص١٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٦

(٣) انظر: نقائض جرير والفرزدق ص٣٧، الكامل في التاريخ ٨/ ٣٧٩، العقد الفريد ٣/ ٣٥٤

بين بكر وتغلب من ربيعة، وخبرها معروف في القصص والشعر[1]، ونقرأ من ذلك قول الفِند الزِمّاني:

صفحنا عن بني ذُهل ... وقلنا: القومُ إخوانُ
عسى الأيّامَ أن يَرجعنَ قوماً ... كالذي كانوا
فلما صرّح الشرّ فأمسى ... وهو عُريانُ
ولم يبقَ سوى العدوان، ... دِنّاهُمْ كما دانوا[2]

وهذه «الحرب» كانت مناسبة انطلق فيها الشعراء حتى قيل: إن أول ما طوّل الشعر إنما كان في أحداثها، فقد رثى مهلهل أخاه كليباً بقصيدة بلغت ثلاثين بيتاً.

وقد سعى للصلح بين القبيلتين عمرو بن هند ملك الحيرة، وقد نشبت بينهما ملاحاة في مجلس عمرو هذا. وكان الحارث بن حلزة البكري قد أنشد مطولته المشهورة، كما أنشد عمرو بن كلثوم التغلبي قصيدته المشهورة، والقبيلتان من قيس، وكانت بينهما مشاركات واتصل رجال كل منهما بملك الحيرة، وإننا لنجد في قصيدة الحارث محاكمة ونقاشاً وجدلاً، يدور كل ذلك في فخره، ويفخر عمرو بن كلثوم بمجد قبيلته ومواقفها.

ومن هذه المشاهد «يوم اللوى» لغطفان على هوازن، وكلاهما من قيس، وقد رثى فيها دريد بن الصمّة أخاه عبد الله بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَرَثَّ جديدُ الحبل من أم مَعبدِ ... بعاقبةٍ واخلفت كل موعد

وفيها يقول:

أمرتُهُمُ أمري بمُنعرَجِ اللِّوَى ... فلم يستبينوا النصح إلاّ ضُحى الغدِ
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم وأنني غير مهتدِ
وهل أنا إلاّ من غزيّة إن غَوَتْ ... غَوَيت وإنْ تَرشُدْ غزية أرشُدِ
دعاني أخي والخيل بيني وبينه ... فلما دعاني لم يجدني بقُعدَدِ[3]

(١) انظر: النقائض ص٧٧٣، الأغاني ٥/٣٢، الكامل في التاريخ ١/٢١٣، العقد الفريد ٣/٣٤٨.

(٢) انظر: شرح الحماسة للتبريزي ١/٢١.

(٣) انظر: الأغاني ـ دار الكتب ١٠/٦، العقد الفريد ٣/٥٤.

وقال النابغة في مدح عمرو بن الحارث الأصغر الغساني:

إذا ما غزا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائب طيرٍ تهتدي بعصائبِ
ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم ... بِهنَّ فلول من قراع الكتائب
تُوَرِّثُنَ من أزمانِ يوم حليمةٍ ... إلى اليوم قد جُرِّبنَ كل التجارب[1]

ويعتذر النابغة إلى النعمان فيقول:

أتاني أبيتَ اللعن أنك لُمتَني ... وتلك التي تستكُّ منها المسامعُ
مقالةَ أن قد قلتُ سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائعُ
لعَمري وما عُمْري عليَّ بهيّنٍ ... لقد نطقت بُطْلاً عليَّ الأقارعُ[2]

وفي ذلك يقول أيضاً:

أُنبئتُ أنَّ أبا قابوسَ أوعَدَني ... ولا قرارَ على زَأْرٍ من الأسَدِ
مهلاً فداءً لكَ الأقوامُ كُلُّهُمُ ... وما أثمِّر من مالٍ ومن وَلَدِ[3]

وقد ظهر النابغة، شاعر المناذرة على حسّان شاعر الغساسنة، مع أن النابغة قد مدح الغساسنة وأشار إلى يوم حليمة، وهو للحارث بن جبلة الغساني ملك الشام على المنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة، وله فيهم قصائد أخرى.

وقد حمل النعمان بن المنذر مديح الشاعر للغساسنة على أنه ولاء سياسي في حين ذهب النابغة إلى شيء آخر وراح يفسره على أنه شكر على أيادٍ له عليه، شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء.

***

ولما غزا النعمان بن الحارث الغساني بني حُنّ، وهم من عذرة، التحم بنو حُنّ وهم

---

(١) ديوان النابغة ص٤٦.

(٢) الديوان ص ٦٥

(٣) الديوان ص ٨٧

قوم النابغة مع الغسانيين فهزموهم وحازوا على ما كان بأيديهم من غنائم لهم، فقال النابغة في هذه الوقعة:

لقد قلتُ للنعمان يوم لقيته ... يُريدُ بني حُنٍّ ببرقة صادنِ
تجنَّب بني حُنٍّ فإنّ لقاءهم ... كريهةٌ وإنْ لم تُلْقَ إلا بصابنِ
عظام اللهى أولاد عذرة إنهم ... لهاميمُ يستلهونها بالخناجرِ
هُمُ منعوا وادي القرى عن عدوّهم ... بجمعٍ مبيرٍ للعدوّ المكاثرِ[1]

وقد افتخر الأعشى بشفاعة رجل من قيس بن ثعلبة في سبي بكر بن وائل في يوم أوارة الأول، وفي يوم أوارة الثاني لما بغى عمرو بن هند على طيّء بإيعاز زرارة بن عُدُس، قال قيس بن جروة الطائي قصيدة منها:

فهبْكَ ابنَ هندٍ لم تعقكَ ملامةٌ ... وما المرءُ إلا عهدُه وموائقُهْ
وكنا اناساً خافضين بنعمةٍ ... يسيل بها تَلْعُ الملا وأبارقُهْ
فاقسمتُ جَهداً بالمنازل من مِنىً ... وما خَبَّ في بطحائهنّ درادقُهْ
لئن لم تغيّر بعضَ ما قد فعلتُمُ ... لأنتحينّ العظمَ ذو انا عارقُهْ

فسُمِّي يومئذ «عارقاً»، فقال عمرو بن تُرمُلة بن شعاث الطائي ـ وهو ابن عم قيس ابن جروة :ـ أيهجوني ابن عمك ويتوعّدني، فقال: لا، واللّهِ ما هجاك ولكنه قال:

والله لو كان ابنُ جفنة جارَكم ... ما إن كساكم غُصّةً وهوانا
وسلاسلاً يبرقنَ في أعناقكم ... وإذاً لقطّعَ تلكم الأقرانا
ولكان عادته على جيرانه ... ذهباً ورَيْطاً رادغاً وجفانا

إلى آخر الخبر، وهو مفاضلة بين المناذرة والغساسنة[2].

وفي أعقاب يوم أوارة الثاني قال لقيط بن زرارة يعيّر بني مالك بن حنظلة بإحراق

(١) الديوان، ص ١٢٧
(٢) النقائض ص٦٥٢، ١٠٨١

عمرو إياهم، ويدعوهم إلى الثورة، وينعى على عمرو سياسته:

فـابلـغْ لـديك بنـي مـالـكٍ ... مُغَلْغلـةً وسَراةَ الـربـابِ
فـإنّ امـرءاً أنتُـمُ حـولـه ... تحطّـون قبّتـه بـالقبـابِ
يُـهين سَراتَكُـمُ عـامـداً ... ويقتلكـم مثـل قتـل الكـلابِ
فلـو كنتُـمُ إبـلاً أملحـت ... لقـد نَـزَعـت للميـاه العِـذابِ
ولكنّكـم غَنَـم تصطفـيَ ... ويُترَكُ سـائرهـا للـذئابِ
لعمـر أبيـك أبـي الخير مـا ... أردتَ بقتلهـم مـن صـوابِ
ولا نعمـةٍ، إن خير الملـوك أفضلهـم في الـرقـابِ[1]

وهذا يظهرغدر الملك بقبيلته، وانتقاض القبيلة عليه، وتفضيل غيره عليه في معاملته لرعيته، ثم ظلم الملك لتميم، ودعوة شاعر منهم إلى نبذ الملك والقيام عليه.

***

واقرأ قول الأعشى يمدح «هوذة»:

سـائل تميماً بـه أيـام «صفقتهـم» ... لما رآهـم أسـارى كلهـم ضَرَعـا
وسـط المشقَّـر في غبراء مظلمـةٍ ... لا يستطيعـون بعـد الشرّ منتفعـا
فقـال للمَلْـكِ أطلـقْ منهـمُ مئـةً ... رَسْلاً مـن القوم مخفوضاً ومـا رَفَعا[2]

وناتي إلى «يـوم الصفقة» ونعرف أنـه كان للفـرس على تميم، وذلك أن تميماً كـانت تحرس تجارة كسرى أنـو شروان في طريقهـا إلى اليمـن، فـأراد هوذة بـن علي الحنفـي خفارتها وأخذ جُعل تميـم، ولكن تميماً نهبت التجارة وأسرت هوذة، ثم فـدى نفسه، ثم احتال مع كسرى حتى استقـدموا بني تميم إلى «المشقّر» وهو حصن يُدخـل فيه الرجل فيُقتَل، حتى سبقـه للأمر رجل، وقطـع سلسلة الحصن وكشف الأمـر فثارت تميم، وفي ذلك قال الأعشى يمدح هوذة[3].

(١) النقائض ص٦٥٢، ١٠٨١
(٢) الديوان (ط أوروبا) ص٨٧
(٣) ابن الأثير، الكامل ١/ ٢٧٥

وافتخر الأعشى فقال:

أمـا تميم فقـد ذاقت عـداوتَنـا ... وقيس عيـلان مسَّ الخزيِّ والأسفُ
وجنـد كسرى غـداة الحنـو صبَّحهم ... منّا غطـاريف ترجـو الموت وانصرفوا
لـو أن كل مَعَـدٍّ كـان شـاركنـا ... في يـوم ذي قـارَ مـا أخطـاهُمُ الشرفُ

و«يوم ذي قار» هذا مشهور، وقد كـان لبكرٍ على الفرس، والكلام فيه كثير معروف، وللشعر فيه مكان، وهو الذي قال فيـه النبي ـ ﷺ ـ: اليوم أول يومٍ انتصف فيه العرب من العجم، وبي نُصروا».

وقال العُدَيل العجلي في ذلك:

مـا أوقـد النـاس مـن نـارٍ لمكـرمـةٍ ... إلا اصطلينـا وكنـا مـوقـدي النـار
ومـا يعـدّون من يـومٍ سمعتَ بـه ... للنـاس أفضلَ من يـومٍ بـذي قـار
جئنـا بأسـلابهم والخيل عـابسـةٌ ... لما استلبنـا لكسرى كل إسـوار[1]

وقد يقف الشاعر القديم من قبيلته موقف النـاقد، ومن ذلك ما نفيده من قول قريط ابن أنيف:

لـو كنت مـن مـازن لم تستبح إبلي ... بنـو اللقيطـة من ذُهْل بن شيبـانـا
إذن لقـام بنصري مشعـرٌ خُشُنٌ ... عنـد الحفيظـة إن ذو لـوثـةٍ لانـا
قـوم إذا الشرُّ أبـدى نـاجـذَيـهِ لهم ... طـاروا إليـه زرافـاتٍ ووحـدانـا
لا يسالـون أخـاهم حين ينـدبهم ... في النـائبـات على مـا قال بـرهـانـا
لكن قـومي وإن كـانـوا ذوي عـددٍ ... ليسوا من الشرّ في شيءٍ وإنْ هـانا[2]

ولعل ممـا يندرج في هـذا مـوقف الصعـاليك من أهلهم وقومهـم، ومن هذا خطـاب الشنفرى في قوله:

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٨٢

(٢) الحماسة (التبريزي) ١/ ٨

أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم ... فإني إلى قومٍ سواكم لأميل
فقد حُمّت الحاجات والّليل مقمِرٌ ... وَشُدَّت لِطيّاتٍ مَطايا وأرْحُلُ

وهو حين يصف مايعانيه في عيشه وما يلقاه من هول يشعر القارىء بوحدته، وأنه لم ينل من أهله وقومه ما يعينه على الحياة، فهو يقول:

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستفُّ ترب الأرض كيلا يُرى له ... عليَّ من الطول امرؤ متطوّل[1]

ولنا أن نقول هذا فيما عاناه الصعاليك الآخرون كلٌّ على طريقته في الحياة، ولنستمع إلى معاناة عروة بن الورد في قوله:

لحا الله صعلوكاً إذا جَنّ ليلُه ... مصافي المُشاشِ آلفا كل مجزَرِ
يعُدّ الغنى من دهره كل ليلةٍ ... أصاب قراها من صديقٍ مُيَسَّرِ
ينام عشاءً ثم يُصبح ناعساً ... يحُثُّ الحصى عن جنبه المتعفّرِ
يُعين نساءَ الحيِّ ما يستَعِنَّه ... ويمسي طليحاً كالبعير المحسَّرِ[2]

ومن شعر الفخر قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

فآبوا بالنِهاب وبالسبايا ... وأُبنا بالملوك مصفَّدينا[3]

وإلى هذا يشير امرؤ القيس:

ملوكاً من بني حجر بن عمرو ... يساقون العشيّة يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا ... ولكنْ في ديار بني مَرينا
ولم تُغسَل جماجمُهم بغُسل ... ولكنْ في الدماء مُرمَّلينا
تظلّ الطير عاكفةً عليهم ... وتنتزع الحواجبَ والعيونا[4]

---

(١) الديوان (في الطرائف الادبية صنعة الميمني)
(٢) الديوان (ط ـ صادر) ص٤٣
(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني (ط صادر) ص١٣١
(٤) الديوان ص ٢٠٠

وخبر هذه الأبيات أن كندة قد قام ملكها أول الأمر برعاية تبابعة اليمن، إذ ملكوا حُجر بن عمرو آكل المرار على بكر بن وائل، فنزل ببطن عاقل، وأغار ببكر، فانتزع ما كان بأيدي اللخميين من أرض بكر، فاتصل ملوكها بالفرس والروم والمناذرة والغساسنة وبعض القبائل البدوية، وكان لهم أيام وشعر إلى آخر أيامهم وزوال ملكهم. ومن ذلك ما كان من امتلاك الحارث بن عمرو الكندي الحيرة مكان المنذر بن ماء السماء أيام قباذ كسرى فارس، ولكن كسرى أنو شروان أعاد المنذر في مكانه وهرب الحارث، ولكنّ بني تغلب وغيرهم انتهبوا ماله، وأخذوا ثمانية وأربعين من بني آكل المرار فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث، فقتلهم المنذر في ديار بني مرينا، وفيهم قال عمرو ابن كلثوم ما قد ذكرنا فكان ذلك مدعاة لقول امرىء القيس.

***

وننشد قول امرىء القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه ... وأيقَنَ أنّا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له لا تبكِ عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموتَ فنُعذَرا[1]

والبيتان يشيران إلى أن الشاعر قد يئس من العرب كما ورد في الأخبار فتوجه إلى السموأل بن عادياء ليكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني بالشام ليوصله إلى قيصر ففعل، وإلى ذلك أشار البيتان.

وقصة كندة هذه تدور حول ملك قام بالجزيرة، ولكنه اتصل باليمن أول الأمر، وبالمناذرة والفرس إبان سطوته وقوته، وبالغساسنة والروم آخر أيامه، وكانت له مع القبائل ولا سيما بني أسد وقائع.

***

وجاء في «السيرة» قول رزاح بن كلاب ينصر أخاه قصيّاً على خزاعة لينتزع منها ولاية الكعبة:

---

(١) الديوان (ط. دار المعارف)

لما أتـــاني عن قُصَيٍّ رســـولُ فقـال الـرسـول: اجيبـا الخليـلا
نهضنـا إليـه نقـود الجيـاد ونطـرح عنـا الملـول الثقيـلا
فهُنّ سراع كـــورد القطـــا يُجبن بنـــا مـن قُصَيٍّ رســـولا
فلما أتينـــا إلى مكـــة أبحنـا الـرجـال قبيـلاً قبيـلا
قتلنـا خـــزاعـــة في دارهـــا وبكـراً قتلنـاه جيـلاً فجيـلا[1]

***

ويقول الزبير بن عبد المطلب في حلف الفضول:

حلفتُ لنعقِـــدَنْ حلفـــاً وإن كنـــا جميعـــاً أهـل دارِ
نسمّيـه الفضـولَ إذا عَقَـدْنـا يُعَـزّ بـه الغـريب لـدى الجوار
ويعلم مـن حَـــوالي البيت أنّـــا أبـاة الضيم نهجـرُ كل عـار[2]

و«حلف الفضول» عمدت إليـه قريش بعدما تعبت من حـروب «الفجار» التي دفعت إليها بغير رغبة فيها، وقال بعضهم بعد منصرفه من «الفجار»:

نحن كنـا الملـوكَ من آل نجـدٍ وحماة الـذمـار عنـد الـذمـار
وَمَنعنـا الحجـون من كـل حيٍّ ومنعنـا الفجـار يـوم الفجـار[3]

وكان الشعراء باشروا في عهود الإسلام ما كـان لصيقاً بالجاهلية من حيث المفاخرة والمنافرة والانحياز لقبـائلهم ومجاميعهم، فهذا حسان بن ثابت شاعـر الرسول، يظهر الشعور بالتفوق والسيادة في شعره وهو في الإسلام، قال:

وكنـا ملـوك النـاس قبل محمـدٍ فلما أتى الإسـلام كـان لنـا الفضلُ
أولئك قـومي خير قـوم بـأسرهم فما عُـدّ من خير فقـومي لـه أهل[4]

(١) سيرة ابن هشام ١/١٣٣
(٢) مروج الذهب ٢/١٦٨
(٣) المصدر السابق ٢/١٦٧
(٤) الديوان ص٣٨٤

وليس هذا بعيداً عن طريقته في شعره وهو في الجاهلية، كقوله في قصيدة مدح بها عمرو بن الحارث الغساني:

ولقد تقلّدنا العشيرة أمرَها ... ونسود يوم النائبات ونعتلي
ويسود سيدّنا جحاجحَ سادةً ... ويُصيب قائلنا سواء المفصل
ونحاوِل الأمرَ المهم خَطابه ... فيهم ونفصل كل أمر مُعضل
وتزور أبواب الملوك ركابنا ... ومتى نُحَكِّم في البرية نعدِلِ[1]

ومثل هذا كثير في شعره في الجاهلية فمنه قوله:

لنا حاضر فَعْمٌ وبادٍ كأنّه ... شماريخ رضوَى عزّةً وتكرُّما
متى ما تَزرنّا من مَعَدٍّ بعصبةٍ ... وغسّانَ نمنَعْ حوضنا أن يُهدَّما
وُلِدنا بني العنقاء وابنَيْ مُحَرِّقٍ ... فأكرِمْ بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابنما[2]

***

وفي الحقبة المتقدمة من تاريخ الإسلام كان للشعراء مكان في وقائع المسلمين مع المشركين، وكان لحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة مواقف للدفاع عن الإسلام والرسول الكريم، فكانوا إذا رثوا قتلى المسلمين، انبرى لهم شعراء قريش ينقضون عليهم ما ذهبوا إليه، وكان يقابل الشعراء المسلمين، وهم ثلاثة من الأنصار، ثلاثة شعراء من قريش وهم عبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص[3].

وأنت تجد الخصومة بين القبائل بقيت هي نفسها في العصور الإسلامية كما كانت في عصور ما قبل الإسلام، فالشاعر المسلم، وهو من قريش، يكتفي في هجائه لقريش بذكر هزيمتهم فهذا ضرار بن الخطاب يقول:

---

(١) الديوان ٣٦٨

(٢) الديوان ٤٢٦

(٣) الأغاني (ط. دار الثقافة) ٤/١٣٨ ـ ١٧٤.

فإن تظفروا في يوم بدرٍ فإنما ... بأحمدَ أمسى حدكم وهو ظاهرُ
وبالنفر الأخيار هم أوليـاؤه ... يُحامون في اللأواء والموتِ حاضر
يُعَدُّ أبو بكر وحمزة فيهم ... ويدعى عليٌّ وَسْطَ مَن أنت ذاكر[1]

وضرار هذا غير كعب بن مالك الأنصاري الذي يهجو قريشاً فيشتمت بما نالهم من القتل والهزيمة، مذكراً إياهم بمصيرهم إلى النار، ولا يقتصر على ذكر هزيمتهم كما فعل ضرار[2].

ويمدح الرسولَ طالب بن أبي طالب ويذكر الحرب في بدر ويكتفي بذكر هزيمة قريش ويأسى على قتلاهم، ويتمنى لو أن الجميع اتفقوا مكيّهم ومدنيّهم على الأنصار، وهذا ما كان يوجه إلى الهاشميين من نقد من كونهم لا يهمهم إلا النبي فهم يخشون أن يناله ما ينال الآخرين من القتل[3]، وفي هذا يقول طالب:

فيا أخَوَينا عبدَ شمس ونوفلا ... فِدىً لكما لا تبعثوا بيننا حَربا
ولا تصبحوا من بعد ودٍّ والفةٍ ... أحاديث فيها كلّكم يشتكي النكبا
فما إن جنينا في قريش عظيمةً ... سوى أن حمينا خير من وطىء الترابا
فوَاللّه لا تنفك نفسي حزينةً ... تَمَلْمَلُ حتى تصدفوا الخزرجَ الضربا[4]

* * *

ونقرأ قول أبي سفيان بن حرب وقد مر ببيت علي بن أبي طالب، وكان الناس يبايعون أبا بكر، وقد ازدحم الناس على البيعة، فوقف عليه وأنشد:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكُمُ ... ولا سيما تيم بن مرّة أو عديّ
فما الأمر إلا فيكُمُ وإليكُمُ ... وليس لها إلا أبو حَسَنٍ عليّ
أبا حَسَنٍ فاشدد بها كفّ حازمٍ ... فإنك بالأمر الذي يرتجى مليّ

(١) السيرة ٣/ ١٤
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٥
(٣) الأغاني ٤/ ١٨٢
(٤) السيرة ٣/ ٢٧

فقال علي ــ رضي الله عنه ــ لأبي سفيان: إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه، وكذلك رفض العباس بن عبد المطلب[1]، وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب يدعو لعلي وينتصر له:

ما كنتُ أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
اليس أولَ من صلى لقبلتكم ... وأعلم الناس بالقرآن والسُّنَن[2]

ولما تم الأمر لأبي بكر، قال أبو عبرة القرشي:

شكراً لمن هو بالثناء حقيق ... ذهب اللجاج وبويع الصدّيق
من بعد ما زلّت بسعدٍ نعله ... ورجا رجاءً دونه العيّوق

إلى أن يقول:

إن الخلافة في قريش مالكم ... فيها وربُّ محمدٍ معروق[3]

* * *

وكان من ذلك أن تحرك الأنصار فذكروا المشاهد التي حضروها في نصرة الإسلام على قريش، فقال حسان:

نصرنا وآوينا النبي ولم نخف ... حروفَ الليالي والبلاء على رَجُلْ
بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا ... كقسمة أيسار الجزور من الفضل

إلى أن يقول:

فكان جزاء الفضل منّا عليهم ... جهالتهم حمقاً وما ذاك بالبَدَلْ

فغضبت قريش، وصار الشعراء يردّون على الأنصار شعرهم[4].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦/٧
(٢) المصدر السابق ٦/٨
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق ٦/١٠

وطال اللجاج بين قريش والأنصار، حتى إن عمرو بن العاص قدم من سفره، وسمع حديث السقيفة فقال:

الا قل لأوسٍ إذا جئتهـــــــا وقُلتَ إذا جئت للخـــــــزرج
تمنّيتُـمُ الملـك في يثـــــــربٍ فانـــــزلت القـــدر لم تنضج

فردّ عليه مالك بن العجلان، شاعر الأنصار، فقال:

فقل لقـــريشٍ نحن اصحـاب مكّـــةٍ ويـــومَ حُنَينٍ والفـــوارس في بَـدر
... ...[1]

***

واجتمعت أسد وغطفـان وطيّء على طليحة الأسدي، وقـدموا إلى المدينة يسـألـون أبا بكر أن يحُطّ عنهم الزكاة فأبى، فقال الحطيئة في قصيدة له:

اطعنـا رسـول الله مـا كـان بيننـا فيـا لعبـاد اللـه مـا لأبي بكـر
أيـورثهـا بكـراً إذا مـات بعـده وتلك لعمـر اللـه قـاصمـة الظهـر
فهـلاّ رددتم وفـدنـا بـزمـانـه وهـلاّ خشيتم حَيَّ راغيـة البكـر
وإن التـي سألـــــوكُمُ فمنعتُـمُ لكـالتمـــر أو أحلى إليَّ من التمـر

والشاعر ينكر في شعـره ما جاء به الإسلام، وهو يشير إلى الـوراثة في الحكم وإلى ما يمكن أن يؤدي ذلك إليه من الثورة[2].

***

وقال أبو شجرة بن عبد العزّى، وهو ابن الخنساء، حين ارتد عن الإسلام:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦/ ١٢

(٢) تاريخ الرسل والملوك (ط أوروبا) ١/ ١٨٧٤، وفيه أيضاً أن القائل هو الخليل أخو الحطيئة.

سل النـــاس عنّـا كل يـــوم كـريهةٍ إذا مـــا التقينـــا دارعين وحُسَّـــرا
ألسنـا نعـــاطي ذا الطماح لجاجـه ونطعُن في الهيجـــا إذا الموت اقفـــرا
وعـارضـةٍ شهبـاء تخطـر بـالقنـا تَـرَى البُلقَ في حـافـاتها والسَّنَـوّرا
فـروّيـتُ رمحي من كتيبـة خـــالـدٍ وإني لأرجـو بعـدهـــا أن أُعمَّـرا[1]

***

وقال القعقاع بن عمرو في أيّام الحيرة زمن أبي بكر:

سقى اللـــه قتلى بـــالفـــرات مقيمـــةً وأخـرى بـأثبـاج النجـاف الكـــوانف
فنحن وطئنـــا بـــالكـواظـم هـرمـــزاً وبـــالثني قـــرني قـارن بـــالجوارف
ويـوم أحطنـــا بـالقصـور تتـــابعت على حبرة الروحاء إحـدى المصارف[2]

***

وسار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من قتال المرتدّين نحو الشام، فمرّ بطريقه، وهو مفوّز، مـن قراقر إلى سـوى فأغار على أهلـه، وهم من بهراء، قبيل الصبح، وكـان ناس منهم يشربون الخمر في جفنة اجتمعوا عليها ومغنيهم ينشد:

ألا علّـــلاني قبل جيش أبي بكـــر لعلّ منـايـانـا قـريب ومـا نـدري
ألا علّـــلاني بـــالـزجـــاج وكـــرِّرا عليّ كميت اللـون صـــافيـةً تجري
أظنّ خيـــول المسلمين، وخـــالـــداً ستطـرقكم قبـل الصبـاح من البِشْر

فقتل مغنيهم تحت الغارة وسال دمه في تلك الجفنة[3].

***

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/١٩٠٥
(٢) المصدر السابق ٥/٢٠٤٦
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/٢٤٠٦

كان الوليد بن عقبة والياً على الكوفة في عهد عثمان بن عفان، وكان يشرب مع ندمائه ومغنّيه حتى الصباح، وقد صلى بالناس الصبح أربعة وأفسد الصلاة، وقد دخل قصره يترنح ثملاً ينشد أبياتاً لتأبّط شراً:

ولست بعيداً عن مدام وقينةٍ ... ولا بصَفاً صلدٍ عن الخير معزل
ولكنني أروي من الخمر هامتي ... وأمشي الملا بالساحب المتسلل

وفي ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يومَ يلقَى ربّه ... أن الوليد أحقُّ بالعذر
نادى وقد تمّت صلاتُهم ... أزيدكم؟ ثملاً وما يدري
ليزيدَهم أخرى ولو قبلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو ... خلّوا عنانك لم تزل تجري

وقد بدا من عثمان شك في شهادة الشهود عليه فلجأوا إلى عليّ، فحمل عثمان على إقامة الحدّ عليه[1].

***

وقتل عثمان بن عفان فرثاه حسان بن ثابت، وكان عثماني الرأي فقال:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ... ما كان شان عليٍّ وابن عفّانا
لنسمعَنَّ وشيكاً في ديارهمُ: ... الله أكبر يا ثارات عثمانا

***

وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخا عثمان لأمه، فسمع في الليلة الثانية من مقتل عثمان يندبه ويقول:

بني هاشمٍ إيهٍ فما كان بيننا ... وسيف ابن أروى عندكم وحرائبُهْ
بني هاشم ردّوا سلاح ابن أختكم ... ولا تنهبوه، ما تحلّ مناهبُهْ
غدرتم به كيما تكونوا مكانه ... كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُهْ

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٢٤ (نشرة محيي الدين عبد الحميد)

فأجاب الفضل بن العباس بن أبي لهب عن الشعر وردّ على الوليد ما رَمَى به بني هاشم فقال:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم ... أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أُختنا ... فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان وليَّ العهد بعد محمدٍ ... عليّ وفي كل المواطن صاحبه[1]

***

وجاء في «تاريخ الطبري»[2]:

«... كانت العرب توقع وقعة العرب وأهل فارس في القادسية فيما بين العذيب إلى عدن أبين، وفيما بين الأبلّة وأيلة، يرون أن ثبات ملكهم وزوالهم بها، وكانت الآذان في كل بلد مصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها، حتى كان الرجل ليريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية، فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت به ناساً من الإنس، فسبقت أخبار الإنس إليهم، قالوا فبدرت امرأة ليلاً على جبل بصنعاء لا يُدرى ممن هي، وهي تقول:

فحيّيت عنا عكرمُ ابنة خالدٍ ... وما خير زادٍ بالقليل المصرّدِ
وحيتكِ عنّي الشمس حين طلوعها ... وحيّاكِ عنّي كلّ ناج مُفرَّد
وحيّتكِ عنّي عصبة نخميةٌ ... حسان الوجوه آمنوا بمحمّد
أقاموا الكسرى يضربون جنوده ... بكل رقيق الشفرتين مهنّد

وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغني:

وجدنا الأكثرين بني تميم ... غداة الروعِ أصبرهم قتالا
هُمُ ساروا بأرعنَ مكفهرٍّ ... إلى لَجِبٍ فزرتُهُمُ رِعالا
بحورٍ للأكاسر من رجالٍ ... كأسد الغاب تحسبهم جبالا
تركنَّ لهم بقادسَ عزّ فخرٍ ... وبالخيفين أيّاماً طوالا
مقطعةٌ أكفُّهم وسوقٌ ... بمردى حيث قابلت الرجالا

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٣٤

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج٢، ق٢، ص٢٣٦٤

وسمع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب.

***

وقال عروة بن زيد الخيل في فتح الحيرة في عهد عمر بن الخطاب، وكان القائد المثنى ابن حارثة الشيباني، وقد هزم مهران، وقتل في هزيمة الفرس إلى المدائن:

هاجت لعروة دار الحيّ أحزانا ... واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنخيلة قتلى عند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم ... فقتّل القوم من رَجْلٍ وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته ... حتى أبادهم مثنىً ووحدانا
... ...
... ...[1]

***

وجاء في «الأخبار الطوال»[2] أيضاً مقطوعات لبشر بن أبي ربيعة، وعروة بن زيد الخيل[3]، وقيس بن زهير، فخر فيها الشعراء بما كان في القادسية، وما كان في حرب المسلمين مع الروم، ومن ذلك قول قيس بن زهير:

جلبتُ الخيل من صنعاء تردي ... بكل مدجّجٍ كالليث حامي
إلى وادي القرى فديار كلبٍ ... إلى اليرموك والبلد الشآمي
فلما أن زوينا الروم عنها ... عطفناها ضوامر كالجُلام
فأبنا القادسية بعد شهرٍ ... مسومة دوابرها دوامي
فناهضنا هناك جموعَ كسرى ... وأبناء المرازبة العظام

(١) الدينوري، الأخبار الطوال ص١١٥، وقد نسبت الأبيات في تاريخ الطبري ج٢ ق٢ ص٢٢٠٠ إلى الأعور الشني.

(٢) الأخبار الطوال ص١٢٥

(٣) والذي ورد في الأخبار الطوال غلطاً هو: عروة بن الورد

وقال عروة بن زيد الخيل:

صبرتُ لأهـل القـادسيـة معلِماً ... ومثلي إذا لم يصبر القِـرْن يصبرُ
فطاعنتهم بالرمح حتى تبدّدوا ... وضاربتهم بالسيف حتى تكرّكروا
حمدت إلٰهي إذ هداني لدينه ... فللّه أسعى ما حييت وأشكرُ

وقال بشر بن أبي ربيعة:

ألَمَّ خيال من أميمة موهنا ... وقد جعلت إحدى النجوم تغور

إلى أن يقول:

وجُلت بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقّاصٍ عليّ أمير
عشية ودّ القوم لو أنّ بعضهم ... يُعار جناحي طائر فيطير
إذا برزت منهم إلينا كتيبة ... أتينا بأخرى كالجبال تمور

***

ومما أورده الطبري في حروب المسلمين مع الروم قول زياد بن حنظلة في عهد عمر ابن الخطاب:

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذ نحن في عامٍ كثير نَزائله
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهرٍ بينهن بلابلُه
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوله قَرم هناك يساجله[1]

***

وكان الأحنف بن قيس قد بعث الأقرع بن حابس إلى الجوزجان سنة ٣٢هـ فسار في جريدة خيل إلى بقية بقيت من الزحوف الذين هزمهم، فقاتلهم الأقرع، وجال المسلمون جولةً، فقُتل فارسان من فرسانهم، ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم، فقال

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج٢ ق٢ ص٢٤١٠، وفيه أمثلة أخرى في الصفحات: ٢٤١١، ٢٥٠٨، ٢٢٦٥، ٢٦٥٢، ٢٧٠٨، وكلها في عهد عمر.

كثير النهشلي:

سَقَى مُـزنُ السحـاب إذا استهلّت ... مصـارع فتيـة بـالجوزجـانِ
إلى القصرين من رستـاق خـوطٍ ... أفـادَهُمُ هنـاك الاقـرعـانِ

والقصيدة طويلة[1].

***

وكان للرجز مكان كالشعر في وقائعهم، فلما قتل عثمان بن عفان بايع كثير من الناس علياً، وتخلّف بنو أمية وآخرون منهم حسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري، ولما تمت البيعة لعلي وخطب خطبته، وأراد الذهاب إلى بيته قالت السبئيّة:

خذها إليكَ واحذَرَنْ أبا حَسَن ... إنا نُمِرّ الأمر إمرارَ الرَسَنْ
صولة أقوام كأسداد السُفُن ... بمشرفيّات كغُدران اللبنْ
ونطعن الملك بلينٍ كالشَطَنْ ... حتى يمُرَنّ على غير عَنَنْ[2]

والسبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين خبّوا في الفتنة الأولى على عثمان وحرّضوا عليه في الأمصار، وتردد زعيمهم بين البصرة والكوفة ومصر، وبث الدعوة لعلي، وصي النبي، وأولى الناس بالخلافة.

وضربت الركبان إلى الشام بنعي عثمان وتحريض معاوية على الطلب بدمه، فبينا معاوية ذات يوم جالس إذ دخل عليه رجل فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: وعليك، من أنتَ لله أبوك، فقد روّعتني بتسليمك عليّ بالخلافة قبل أن أنالها، فقال: أنا الحجاج بن خُزيمة بن الصِمّة، قال: ففيم قدمت؟ قال: قدمت قاصداً إليك بنعي عثمان، ثم أنشأ يقول:

إنّ بني عمّك عبد المطّلبْ ... هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالوثب فثِبْ ... وسِرْ مسير المحذئل المُتَلّثبْ

(١) الطبري ج٢ ق٢ ص٢٩٠٢

(٢) المصدر السابق ص٣٠٧٩

ثم قال له: وإنك تقوى بدون ما يقوى به عليّ، فإن معك قوماً لا يقولون إذا سكتّ، ويسكتون إذا حلفت، ولا يسألونني إذا أمرت. ومع عليّ قوم يقولون إذا قال، ويسألون إذا سكت، فقليلك خير من كثيره، وعليٌّ لا يرضيه إلا سُخطك، ولا يرضى بالعراق دون الشام، وأنت ترضى بالشام دون العراق، فضاق معاوية بما أتاه الحجاج بن خزيمة ذرعاً فقال:

أتتاني أمرٌ فيه للناس غُمّة	وفيه بكاء للعيون طويلُ
مصاب أمير المؤمنين وهذه	تكاد له صُمُّ الجبال تزول
تداعت عليه بالمدينة عصبة	فريقان منهم قائل وخَذول
سالقحها حَرباً عواناً مُلحّة	وإني بها من عامنا لكفيلُ[1]

***

وتحوّلت عائشة إلى بني أمية، وإذا هي في طريقها إليهم، لقيها عند «سَرَف» عبد بن أم كلاب وهو عبد أبي سلمة، وحاورها في مقتل عثمان وخلافة علي، فقالت: قُتِلَ والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه، فقال لها: وَلِمَ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، فقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، فقال لها ابن أم كلاب:

منكِ البَداء ومنكِ الغِيَرْ	ومنكِ الرياح ومنكِ المَطَرْ
وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام	وقلتِ لنا إنّه قد كَفَرْ[2]
... ...	

وقد أقبل جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أمّ المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، ثم خرج غلام شابّ من بني سعد فلام طلحة والزبير على إخراجهما عائشة دون نسائهما، ثم اعتزل وقال:

---

(١) الأخبار الطوال ص١٥٦

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج د ق ٢ ص٣١١٢، ومروج الذهب ٢/٢٤٦ وفيه أن الأبيات قد نسبت إلى عمار بن ياسر

صُنتُم حـــلائلكم وَقـــدَمتُـم امّكم ... هـــذا لعمـــرك قلّـــةُ الإنصـــافِ
أمِـــرت بجـــرّ ذيـــولها في بيتهـــا ... فهَـــوَت تَشقّ البيـــد بـــالإعجافِ
... ...[1]

* * *

واحتـاج معاويـة إلى عمرو بن العـاص، فشرط عليه أن تكـون له مصر، فتلكأ عليه معاويـة، فقال لـه عتبة بن أبي سفيـان: أما ترى أن تشتري عمـراً بمصر، إن صفت لك قليتك لا تغلب على الشام، وقـال معاوية لعتبـة: بت عندنـا ليلتك هذه، فبات عتبـة عنده وأنشد:

أيها المانـع سيفـــــــاً لم يُهزْ ... إنما مِلْـتَ على خَـــــزّ وقَـــــزْ
إن مصراً لعليٌّ او لنـــــــــا ... يُغلَب اليـــوم عليهـــا من عَجَـــزْ
... ...

فلما كـان الصباح بعث معـاوية إلى عمـرو، وأعطـاه ما سأل، وبعـد ذلك بفترة كتب معـاويـة إلى عمرو بن العـاص، وهـو على مصر قـد قبضها بـالشرط الـذي اشترط على معاوية:

«أما بعـد، فإنّ سؤال أهـل الحجاز وزوّار أهل العـراق قد أكثروا عليّ، وليـس عندي فضل من أعطيات الجنود فاعِنّي بخراج مصر هذه السنة، فكتب إليه عمرو:

معـاويَ إن تُـدركَ نفس شحيحـةٌ ... فما وَرّثنـنـــي مصرَ امّـــي ولا ابي
ومـا نلتُهـــا عفـواً ولكـن شرطتهـا ... وقد دارت الحربُ العَـوانُ على قُطبِ
ولـولا دفـاعي الأشعـريِّ وصحبَـه ... لألفيتهـا تـرغـو كـراغيـة السَّقْبِ

فلما رجع الجواب إلى معاوية، تذمّم فلم يعاوده في شيءٍ من أمرها[2].

* * *

(١) الطبري ص٣١٢١

(٢) الأخبار الطوال ص ١٢٤

وقد وقفت العراق مع عليّ، والشام مع معاوية، وكان معاوية مكيناً في الشام بخلاف عليّ في العراق، وكان معاوية قد أبى أن يبايع علياً وكتب إليه بأبيات كعب بن جُعيل:

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق له كارهونا
وكلٌّ لصاحبه مُبغضٌ ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا: عليٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابنَ هندٍ رضينا

فلما قرأ عليٌّ ذلك، قال للنجاشي: أجب فقال:

دَعَنَّ معاوي ما لن يكونا ... فقد حقّق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العرا ... قِ وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القوم ملك العراق ... فقدماً رضينا الذي تكرهونا
... ...[1]

ولما هم معاوية بالخروج إلى صفين سنة ٣٦هـ، وعلم الوليد بن عقبة بخوف معاوية من علي بعث إليه بقوله:

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ ... فإنك من أخي ثقةٍ مُليمُ
قطعت الدهرَ كالسدم المُعنّى ... تهدِّرَ في دمشقَ فما تريمُ
وليس أخو التِّرات بمن توانى ... ولكن طالب التِّرَةِ الغشومُ
ولو كنت القتيل وكان حَيّاً ... لجرَّد، لاألَفُّ ولا سَئُومُ
ولا نكَلٍ عن الأوتار حتى ... يبيء بها ولا برمٍ جثوم
وقومك بالمدينة قد أُبيروا ... فهم صرعى كأنهم الهشيمُ[2]

***

وكانت ربيعة في «صفين» مع عليّ تتبارى في نصرته بزعامة الحصين بن المنذر بن الحارث الذهلي، فقال في ذلك علي:

---

(١) الأخبار الطوال ص١٦

(٢) الطبري ص٣٢٥٧

لمن رايـةٌ سـوداءُ يخفـق ظلهـا ... إذا قيـل قـدِّمْهـا حُصَينُ تقـدّمـا
يقـدّمهـا في الموت حتـى يـزيـرهـا ... حياض المنـايا تقطـر الموت والدمـا
أذقنـا ابـن حرب طعننـا وضربنـا ... بـاسيـافنـا حتـى تـولّ واحجما
... ...[1]

***

وقد يقال: إنه كان على عليّ أن يأخذ برأي المغيرة بن شعبة، وإبقاء معاوية على الشام حتى تلزمه طاعة عليّ، فإذا استقرت الأمور رأى فيـه رأيه، ولكن عليّاً أبى أن يأخذ برأي المغيرة، فقال المغيرة:

نصحـتُ عليّـاً في ابـن هنـدٍ مقـالـة ... فردت فـلا يسمع لها الـدهر ثـانيهْ
وقلـت لـه: أرسـلْ إليـه بعهـده ... على الشـام حتـى يستقر معـاويـهْ
ويعلـم أهـل الشـام أن قـد ملكتَـه ... وأمُّ ابـن هنـدٍ بعـد ذلـك هـاويـهْ
فلـم يقبل النصـح الـذي جئته بـه ... وكانـت له تلك النصيحة كـافيهْ[2]

وقال عمرو بن العاص:

معـاوي لا اعطيـك ديني ولم انـل ... به منـك دنيا فانظرنْ كيـف تصنع
فـإن تعطنـي مصراً فأربَـحُ صفقـةٍ ... اخـذتَ بها شيخـاً يضرُّ وينفـع[3]

***

واستمر القتـال في صبح ليلة لقـاء جيش علي وجيش معـاوية، وكاد الأمـر يتم لعلي، ونادت مشيخـة أهل الشـام: الله اللـه في الحرمات والنسـاء والبنات، فقـال عمرو بـن العاص:

---

(١) الطبري ٢٣٣١٦ ومروج الذهب ٢/ ٢٧٠
(٢) مروج الذهب ٢/ ٢٥٦
(٣) مروج الذهب ٢/ ٢٤٠

«أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه» في رمحه، فكثر في الجيش رفع المصاحف، وارتفعت الضجة ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، ومن لجهاد الروم؟ ومن للكفّار؟ ورفع عسكر معاوية نحواً من خمسمئة مصحف، وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خير قُران
ونادَوا علياً يا ابن عمّ محمد ... أما تتقي أن يهلك الثقلان

حتى خدع بذلك أهل العراق، وتركوا القتال على الرغم من عليّ، وبعد ما كثر القتلى، وبرم الناس من هذه البلايا، وسمعت امرأة بصفين، وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهي تقول:

أعينيّ جودا بدمعٍ سَرِبْ ... على فتيةٍ من خيار العربْ
وما ضرّهم غيرُ حَيْن النفوس ... بأيّ أميرَي قريش غَلَب[1]

* * *

ثم كانت مسألة «التحكيم» المشهورة.

وقد سخط أهل العراق على أبي موسى الأشعري، وندموا على ما كان من اختيارهم له ليكون خصيماً لعمرو بن العاص، وقال أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي، وهو من أهل الشام، وكان قد اعتزل قومه:

لو كان للقوم رأيٌ يهتدون به ... عند الخطوب رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخٍ من ذوي يَمَنٍ ... لم يدر ما ضربُ أخماس لأسداس[2]

* * *

وكان عليّ شديداً في الرأي والحكم وإقامة الحدود، سأله أخوه عقيل شيئاً من بيت

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٧١، ٢٧٥

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧٩ والأخبار الطوال ص١٩٦، وفي «المروج» ٢/ ٢٧٨ شعر لابن عباس لام فيه أبا موسى الأشعري، وشعر في تأييد عليّ.

المال فأبى عليه ذلك، فهرب إلى معاوية فأكرمه، وكذلك كان شأنه مع ولديه الحسن والحسين. وكان عبد الله بن عباس عامله على البصرة يهتدي بهديه، فقد وفد عليه عُيينة ابن مرداس التميمي يسأله عطاءً، وكان ابن مرداس هذا هجّاءً خبيث اللسان، فردّه ابن عباس وحبسه وهدده بقطع لسانه إن هجا أحداً، ثم أخرجه عن البصرة فذهب إلى المدينة بعد مقتل علي، فلقي الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر فسألاه عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما، فاشتريا عرضه بما أرضاه، فقال يمدحهما ويلوم ابن عباس:

أتيتُ ابنَ عباسٍ فلم يقض حاجتي ... ولم يرج معروفي ولم يخشَ منكري
حُبست فلم انطق بعذرٍ لحاجةٍ ... وسدّ خصاص البيت من كل منظر
... ...[1]

***

وخطب حيان بن ظبيان من رؤساء الخوارج أصحابه فحثهم على الجهاد وقتال الظالمين فقال:

خليليّ ما بي من عزاءٍ ولا صبر ... ولا إربةٍ بعد المصابين بالنهر
سوى نهضاتٍ في كتائب جمّةٍ ... إلى الله ما تدعو وفي الله ما تفري
... ...[2]

***

وقد هَمّ الخوارج بالخروج سنة ٣٤هـ، والمغيرة بن شعبة والٍ على الكوفة من قبل معاوية، فأنذرهم، وحذر القبائل أن يحموهم، وقد نزلوا إحدى دور بني عبد القيس فكره صعصعة بن صوحان مقامهم في عشيرته، فلما علم بذلك المستورد بن عُلّفة، وهو من رؤساء الخوارج عزم على ترك الكوفة بمن معه منهم، فقال في ذلك معاذ بن جوين الخارجي:

---

(١) الأغاني (ط بولاق) ١٩/ ١٤٤، والقصيدة طويلة.

(٢) الطبري ج٢ ق١ ص١٩

ألا أيّها الشارون قد حان لامرئٍ ... شَرَى نفسه للّه أن يترحّلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالةً ... وكل امرئٍ منكم يُصاد ليُقتلا
فشدّوا على القوم العداة فإنما ... إقامتكم للذبح رأياً مضلّلا
... ...[1]

***

ولكن المغيرة قد بعث في قتالهم حتى هدأت ثائرتهم بعد ما دوخوا جيوش العراق، ثم قسا عليهم عبيد الله بن زياد، فقتل منهم جماعة بينهم عروة بن أدية فخرج مرداس في أربعين رجلاً، فأرسل إليهم ابن زياد ألفي رجل عليهم ابن حصن التميمي، فهزمهم الخوارج، وقال شاعرهم في ذلك:

أألفا مؤمنٍ فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسكَ أربعونا[2]

على أن ابن زياد قد أرسل جيشاً آخر فهزمهم وقتل أبا بلال مرداساً، وذلك سنة ٦١هـ.

***

وقد كان معاوية سمحاً مع خصومه، حليماً يعمل في أناةٍ ولين، وقد يصطنع الحيلة على عكس ما كان عليه ابنه يزيد من صرامة جاهلية. روى صاحب «الأغاني» في ترجمة النعمان بن بشير الأنصاري، قال: شبّب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية فقال:

رَمْلَ، هل تذكرين يوم غزالٍ ... إذ قطعنا مسيرنا بالتمنّي
إذ تقولين عمرك الله هل شيء ... وان جلّ سوف يسليك عنّي
طمعتَ يا ابن حسان في ذا ... ك كما قد أراك أطمعت منّي

---

(١) الطبري ج٢ ق١ ص٢٦.

(٢) المصدر السابق، ج ق ١ ص ١٨٧.

فقال لـه معاوية: أين أنت من أختهـا هند؟ وأما يزيـد فقد غضب، وحمل الأخطل على هجاء الأنصار فقال:

وإذا نَسَبتَ ابنَ الفُـــريحة خِلتَـــه كـــــالجَحـش بين حمارة وحمارِ

فشكاه النعمان بن بشير إلى معاوية وهدّد معاوية فترضاه[1].

***

واستتب الأمر لمعاوية بعد تنازل الحسن بن علي، فسلك سبيل اللين والشدة، فسعَى إلى أخذ البيعـة لابنه يـزيد وبذلك جعل الحكم في بني أميـة، وجعله «هـرقلية» كما قيل، وأشار إلى هذا عبد الرحمن بن أبي بكر، وقال فيه عبد الله بن همام السلولي:

فإنْ تـأتـوا بـــرملـــةَ أو بهنـــدٍ نبـــايعهـــا أميرة مـــؤمنينـــا
إذا مـــا مـــات كسرى قـــام كسرى نعـــدُّ ثـــلاثـــةٌ متنـــاسقينـــا[2]

***

وقد أثارت سيـاسة الأمويين سخط الموالي لأنها كانـت عربية خالصـة، فانحازوا إلى اليمنية وسعوا إلى إسقاط الأمويين.

ومن هنـا قويت الأحـزاب فكـان بنـو هاشم (علـويين وعبـاسيين)، والزبيريـون، والخوارج، وكـان من نتـائج ذلك أن انحـاز الشعراء إلى هـذه الأحـزاب، وظهـرت الأسر وأخـذت مكانها في الحركـة السياسيـة، وكـان من ذلك أن ظهرت الخصـومات الأدبيـة تثيرها النزعات السياسية[3].

***

وقد حمل الحكم الأموي الشعراء على مناهضـة خصومهم، فقد قال الراعي النميري

---

(١) الأغاني (ط. دار الثقافة ببيروت) ١٥/ ٨١ ـ ٨٥.

(٢) مروج الذهب ٢/ ٢٩.

(٣) وفي تاريخ الطبري، ومـروج الذهب، والأخبار الطـوال فوائد في هذا الباب أشرنـا إلى شيء منها، وإذا جئنا إلى كتاب «الكـامل» للمبرد وهو كتاب أدب ولغة؛ وجـدناه حافلاً بـأخبار الخوارج، انظر الجزء الثاني (ط زكي مبارك ومحمود محمد شاكر).

يخاطب عبد الملك بن مروان متبرئاً م ـ ابن الزبير والخوارج النجدات:

إني حلفـــتُ على يمينٍ بَـــرّةٍ ... لا اكـذب اليـومَ الخليفـةَ قيـلا
مـا إنْ أتيـت أبـا خبيـبٍ وافـداً ... يـومـاً أريـد لبيعتـي تبديـلا
ولا أتيـت نُجيـدة بـن عـويمـرٍ ... أبغـي الهدي فيزيـدني تضليـلا[1]

***

وكان زياد بن أبيه شديداً على الخوارج إبان ولايته للعراق، وكذلك كان ابنه عبيد الله، فقد قتل هـذا عروة بن أديّة، من زعماء الخوارج، وقـد غضب أخوه لقتله وهـو أبو بلال مرداس بن أديـة، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً مـن الخوارج، فأرسل إليهم ابـن زياد ألفين برياسة ابن حصن التميمي، فهزمته الخوارج، فقال في ذلك عيسى بن فاتك الحبطي:

ألفـا مـؤمـنٍ فيما زعمتُـم ... ويهزمُهـم بـآسـكَ أربعـونـا
كـذبتـم ليـس ذاك كما زعمتـم ... ولكـن الخوارج مـؤمنـونـا
هـم الفئـة القليلـة غير شـكٍّ ... على الفئـة الكثيرة يُنصرونـا[2]

***

ومـن أخبار الخوارج أن مـن شعـرائهـم عمران بـن حطـان الـذهلي.. من دعـاتهم ومقدّميهـم في المذهب، وكـان الحجاج قـد طلبه، فلحق بـالشام ونـزل بروح بـن زنباع الجذامي، وانتسب له أزدياً، فلما بدت حقيقته انصرف وترك لابن زنباع رقعة قال فيها:

يا رَوحُ كـم من أخي مثـوى نزلـت به ... قـد ظـنَّ ظنَّـك مـن لخم وغسـان
حتـى إذا خفتـه فـارقـتُ منـزلـه ... مـن بعد مـا قيـل: عمـران بن حطـان
قـد كنـتُ ضيفـاً حـولاً لا تـروّعنـي ... فيـه الطـوارق مـن انـسٍ ومـن جـان
حتـى أزدت بي العظمـى فـأوحشنـي ... مـا أوحش النـاس من خوف ابن مروان

ثم أتـى زفر بن الحارث الكلابي بقـرقيسياء، وانتسب لـه أوزاعياً، ولكن زفر عـرفه

---

(١) الكامل ٢/١٣٢.

(٢) المصدر السابق ٢/١٦٢ وفيه أن القائد عبيد الله بن أسلم بن زرعة، والذي ورد في الطبري ما قدمناه وكنا قد أشرنا إليه.

وقال له: أزدي مرّة وأوزاعي أخرى؟ فتركه وهو يقول:

إن التي أصبحت يعيا بها زُفَر ... أعيَتْ عياءً على روح بن زنباع
ما زال يسألني حولاً لأخبره ... والناس ما بين مخدوعٍ وخدّاع
حتى إذا انجذَمَت مني حبائله ... كفّ السؤال ولم يولع بإهلاع
فاكفف كما كفّ رَوحٌ إنني رجل ... إمّا صميم وإما فقعة القاعِ

وهكذا عاش مطارداً في سبيل مذهبه مدة ما، ينكر حقيقته خوف السلطان.

وقد كتب إلى الحجاج لما طلبه، وكان الحجاج قد عجز عن غزالة الحرورية فقال:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر
لصدَعَت غزالةُ قلبه بفوارسٍ ... تركت مدابره كأمس الدابر[1]

***

ومن رؤساء الخوارج قطري بن الفجاءة وكان قد أمضى في رياسته عشرين سنة حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩هـ، وقال في يوم دولاب بين الخوارج وأهل البصرة:

لعمرك إني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتىً في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وظلّت شيوخ الأزد في حومة الوغى ... تعوم وظلنا في الجلاد نعوم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصا ... يمُجّ دماً من فائظٍ وكليم[2]

***

ولما قتل مصعب بن الزبير سنة ٧٠ للهجرة رثاه عبيدَ الله بن قيس الرقيات، وأشار

(١) الكامل للمبرد ٢/ ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، والأغاني ٧/ ٣، ١٢/ ١١٤، ١٦/ ١٥٢ (ط بولاق).
(٢) معجم البلدان «دولاب».

إلى قعود مضر عن نصرته، وأدركت ربيعة ثأرها في قتله، فقال:

إنّ الـــرزيّـــة يـــوم مسكِن والمصيبـــة والفجيعـــةْ
بـــابـن الحواريّ الـــذي لم يعـــدُه أهل الـــوقيعـــةْ
غَـــدَرت بـــه مُضر العـــراق وأمكنت منـــه ربيعـــةْ
فاصبـتِ وِتْـــركِ يـــا «ربيع» وكنت ســـامعـــةً مطيعـــةْ[1]

ولما هرب الشاعر عقب مقتل مصعب آوته في الكوفة امرأة تدعى «كثيرة» وأكرمته نحواً من سنة، وقد ذكرها في شعره مادحاً كرمها وفضلها، وجعل منها مادة ديباجته السمحة، وقد اضطر إلى تركها لأنه خشي أنْ يعرف أمره وتوجه إلى المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر الهاشمي فأجاره، ثم توسل إلى أم البنين واستعان بها فأعانته، ومن هنا نقف على تحوّله إلى الأمويين فمدح عبد الملك قائلاً:

عـــادَ لـــه من كثيرة الطـــربُ فعينـــه بـــالـــدمـــوع تنسكب
مـــا نقمـــوا مـن بني أميّـــة إلا انهم يحلُمـــون إن غضبـــوا
وانّهم ســـادة الملـــوك فما تصلـح إلا عليهـم العـــرب
إن الأغـــرّ الـــذي أبـــوه أبـــو العـــاصي عليـــه الـــوقـــار والحجب
... ...
يعتـــدل التـــاج فـــوق مفـــرقـــه على جبينٍ كأنـــه الـــذهب[2]

***

وقد أعجب عبد الملك بن مـروان بشعر أيمن بن خريم لصدق لهجتـه في شعره الذي أفصح به عن رأيه، وكان يتشيع، وقد قال في الهاشميين:

---

(١) الديوان ص١٨٤.

(٢) الديوان ص ١ ـ ٦.

نهارُكُم مكابدةٌ وصوم ... وليلكم صلاة وافتراءُ
وَليتم بالقران وبالتزكيّ ... فأسرعَ فيكم ذاك البلاء
بكى نجدٌ غداة غدٍ عليكم ... ومكّة والمدينة والجواء
وحقّ لكل أرضٍ فارقوها ... عليكم لا أبا لكمُ، البكاء
أأجعلكم وأقواماً سواءً ... وبينكُمُ وبينهُمُ الهواء؟
وهم منكم لأرجُلكم وانتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء

وقد مدح الأمويين واتصل بعبد الملك، ودخل مصر مع نصيب على عبد العزيز بن مروان ومدحه، ثم تركه غاضباً إلى بشر بن مروان بالكوفة ومدحه معرضاً بعبد العزيز:

زكبت من المقطّم في جُمادى ... إلى بشر بن مروان البريدا
... ...

وكان عبد الملك قد قال له: خذ هذا المال وانطلق فقاتل ابن الزبير، فإن أباك كانت له صحبة فأبى وقال:

ولستُ بقاتلٍ رجلاً يصلّي ... على سلطان آخر من قريش
له سلطانُه وعليَّ وِزري ... معاذ الله من سَفَهٍ وطيش
أأقتلُ مسلماً وأعيش حيّاً ... فليس بنافعي ما دمت عيشي

وكان أيمن هذا يفضّل الهاشميين على سواهم ويميل قلبه إليهم، وكان ينتفع من صلته بالأمويين[1].

***

وكان أبو العباس الأعمى أمويّ الهوى، ومن شعراء بني أمية المقدمين، وهو القائل في أبي الطفيل عامر بن واثلة من أصحاب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

لعمرك إنني وأبا طُفيل ... لمختلفان والله الشهيدُ
أرى عثمان مهديّاً ويابى ... متابعتي وآبى ما يريد

(١) الاغاني ٢١/ ١٠ (ط بولاق)، والشعر والشعراء (ط أوروبا) ص٢١٤.

وقال في مروان مادحاً:

ليتَ شعـــري أفـــاحَ رائحـــة المسك ومـــا إخـــال بـــالخيف انسي
حين غـابت بنـو أميّـة عنـه والبهـاليل من بني عبـد شمس
خطبـاءٌ على المنـابـر فـرسـان عليهـا وقـالـة غير خـرس
لا يُعـابـون صـامتين وإن قـالـوا أصـابـوا ولم يقـولـوا بلَبْس
بلحـــومٍ إذا الحلـــوم تقضَّت ووجـــوهٍ مثل الـدنـانير مُلْس

وقد سمع المنصور منه هذا المديح أيام مروان، فلما آلت الخلافة إلى المنصور خرج حاجّاً، فلقي هذا الشاعر، فقال له: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المنصور، وأنا رفيقك وأنت تريد الشام أيّام مروان، فقال: أوه:

آمتْ نســـاء بني أميّـــة منهم وبنـــاتهم بمضيعـــةٍ ايتـــامُ
نـامت جـدودُهُـمُ واسقِطَ نجمُهم والنجم يسقط والجدود نيـــام
خلت المنـــابـــر والأسرة منهم فعليهم حتى الممات ســـــلام

ولم يقبل من المنصور عطاءً، لأن مروان أغناه أن يسأل أحداً بعده.

وقال يحض بني أمية على عبد الله بن الزبير:

ابنـي أميّـــــــة لا أرى لكـم شَبهـــاً إذا مـــا التفّت الشِّيَعُ
سعـــةً وأحـــلامـــاً إذا نـــزَعت أهلُ الملـــوم فضرّهـــا النَّـــزَع
اللـــه أعطـــاكم وإن رَغَمت من ذاك ألـف معـــاشر رفعـــوا
ابنـي أميّـــــــة غير أنكـمُ والنـاس فيما أطمعـــوا طمعـوا
أطمعتـمُ فيكـم عـــــــدوّكـم فسما بهم في ذاكُـــمُ الطمـــع

ولما غلب ابن الـزبير على مكة نفـاه إلى الطائف، فهجـا الـزبيريين، ورماهم بـالبخل واللؤم والتخلف عن قريش في المفاخر. غير أنـه مع ذلك كان يميز بين هواه إلى بني أمية، وبين ما كان له من صداقة خاصة، فقـد كان صديقاً لمصعب بن الزبير، قال له عبد الملك

يوماً: أنشدني مديحك مصعباً فاستعفاه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما رثيته بذلك، وقد علمت أن هواي أمويّ، قال: صدقت، ولكن أنشدني ما قلت، فأنشده:

رحم الله مصعباً فلقد مـا ... ت كريماً ورام أمراً جسيما

فقال عبد الملك: أجل، لقد مات كريماً[1].

***

وكان أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة الشيباني شديد التعصب لبني أمية، مرواني المذهب، وكان يسكن الكوفة، قال يمدح عبد الملك بن مروان:

وما أنا في أمري ولا في خصومتي ... بمهتضَمٍ حقي، ولا قارع سِنّي
وفضّلني في الشعر واللبّ أنني ... أقول على علم وأعرف ما أعني
فأصبحت إذ فضلت مروان وابنه ... على الناس قد فَضَّلت خير أبٍ وابن

فأحسن له جائزته، وقد دخل على عبد الملك وهو يتردد في الخروج لقتال ابن الزبير، فدفعه بكلام منثور، ثم أنشد:

آل الزبير من الخلافة كالتي ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حُمِّلت ... ما لا تطيق فضيَّعت أحمالها
قوموا إليهم لا تنامـوا عنهم ... كم للغواة أطلتُمُ إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ... ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قُفلاً مغلقاً ... وانهض بيمنك فافتتحْ أقفالها

فضحك عبد الملك وقال: صدقت يا أبا عبد الله، إن أبا خبيب لقفل دون كل خير[2].

ومن الشعراء الذين انحازوا إلى الأمويين النابغة الشيباني، مدحهم ونال جوائزهم، قال يخاطب عبد الملك:

---

(١) الأغاني ١٥/ ٥٩ ـ ٦٣ (ط بولاق).
(٢) الأغاني (دار الكتب) ١١/ ٢٧١.

أرحـــتْ عنـا آل الـــزبير ولـــو ... كـانـوا هـم المالكين مـا صلحـوا
آل أبي العـــاصي آل مـــاثـــرةٍ ... عـــزّ عتـاقٍ بـالخير قـد نفحـوا
خير قـريـــشٍ وهـــم أفـاضلهـا ... في الجدّ جـدّ وإن هُـمُ مَـزَحـوا[1]

وقال ليزيد بن عبد الملك يعد أن هزم يزيد بن المهلب:

فضضـت كتـائب الأزدي فضّـاً ... بكبشـــك حين لفهما اللقـــاء
سمكـت الملـكَ مقتبلاً جـديـداً ... كما سُمكـــت على الأرض السماء
نـرجّـي أن تكـون لنـا إمـامـاً ... وفي ملـك الـوليـد لنـا رجـاء
هشـام والـوليـد وكـل نفـسٍ ... تتـريـد لـك الفنـاء لـك الفـداء

فأقصاه هشام لما ولي الخلافة[2].

* * *

وكان لبني أمية سياسة خاصة في استرضاء أعدائهم وتألّفهم، ومن ذلك أن معاوية قد تألّف عمرو بن العاص إليه كما استلحق زياد بن أبيه، وعفا عن عبد الله بن هاشم ابن عتبة، من أصحاب عليّ يوم صفين، ولم يستمع في هذا إلى ما قاله عمرو بن العاص الذي استشهد بقول الشاعر:

وقـد ينبت المرعـى على دِمَن الثـرى ... وتبقـى حـزازات النفـوس كما هيـا

ثم تناقض معاوية مع عبد الله هذا بشعر كان شناءة وبغضاً، ولكن معاوية قال:

أرى العفو عـن عليا قريـشٍ وسيلةً ... إلى اللـــه في يـوم عصيـبٍ قُماطِـرِ
ولست أرى قتـل العداة ابـن هاشـم ... بـإدراك ثـأري في لـؤيّ بـن عـامـر
بل العفـو عنه بعـدما بـان جرمـه ... وزلت به إحـدى الجدود العواثر[3]

ومن شواهد العصبية أنه لما قتل الضحاك بن قيس الفهري من قيس عيلان في «مرج

(١) الديوان ص (و، ز).
(٢) الديوان ص (ح).
(٣) مروج الذهب ٢/٣١٢.

راهط» وقتل معه أشراف قيس، أقبل زفر بن الحارث هارباً من كلب ـ وكانوا مع مروان ابن الحكم على القيسية التي كانت مع ابن الزبير ـ حتى دخل قرقيسياء وتبعه عميرين الحباب السلمي، وأقبل زفر يبكي قتلى المرج ويقول:

لعمري لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ ... لمروان صدعاً بيننا متنائيا
أريني سلاحي، لا أبالك، إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أبعد ابن عمرو وابن معنٍ تتابعاً ... ومقتل همّام أمنّى الأمانيا
وتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهطٍ هي كما هيا
فلم تُسرَ مني نبوة قبل هذه ... فراري وتركي صاحبيّ ورائيا
أيذهب يوم واحد إن أسأتُه ... بصالح أيامي، وحُسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحطّ الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقال ابن المخلاة يجيبه:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... على زُفَرٍ من الداء باقيا
تُبكّي على قتلى سليمٍ وعامرٍ ... وذبيان مغروراً وتبكي البواكيا[1]

هذه طائفة من «وقفاتي» التي أفدتها من قراءاتي في كتب الأدب والتاريخ، وهي شيء ستتبعه مادة أخرى.

---

(١) الأغاني (ط بولاق) ١٧/ ١١٧، تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ق١ ص٤٨٢.